من تاريخ القصة في لبنان

عوّاد و«رغيف» الاستقلال

بقلم الدكتور سهيل ادريس

على الرغم من ان آثار توفيق يوسف عواد (١) محدودة ، فانها تنطوي على جميع مزايا النتاج الفني المبتكر ، وتكشف عن قيمة مزدوجة : تاريخية وانسانية . ففي مجموعاته القصصية الثلاث وروايته الطويلة ، يبرز اللون المحلي في أغنى مظاهره والشواغل الاجتماعية في اعمق معانيها ، والتحليل الدقيق للنفسيات الجديدة ، والنزعة الانسانية .

والتنوع هو الطابع الرئيسي لمجموعات عواد : «الصبي الأعرج» (١٩٣٦) و « قميص الصوف » (١٩٣٧) و «العذارى» (١٩٤٤) فالتحليل النفسي الغني يظهر في القصة الرئيسية التي سميت المجموعة الاولى باسمها . إنها قصة صبي أعرج كان عمه يسومه الوان العذاب بقسره على الاستجداء وضربه ضرباً شديداً حين يقصر في جلب المال . ثم يحدث ان يصدر قانون بمنع الاستجداء ، فينتقل الصبي الى بيع الحلوى ؛ ولكن بعض صبيان الأزقة كانوا يضربونه ويأكلون حلواه ، حتى علمه بائع الحلوى اللكم والضرب ، بحيث كان ينتصر على الاولاد . وفيما هو عائد ذات يوم ، وقد استقل الزرام لاول مرة ، اعترضه قاطع التذاكر لقذارته ودفع به أرضاً ، فسقطت منه صندوقته ، ومرت عليها سيارة فحطمتها ؛ وحين عاد الصبي الأعرج الى الكوخ ، نال من عمه جزاء قاسياً . ولكنه ثار في الليل فنهض غاضباً وأخذ يضرب بالعصا عمه ضرباً شديداً ، وفي تلك الأثناء ، سال زيت المصباح ، فشبت النار ، وولى الصبي هارباً ، ولم ينس ان يغلق الباب . فاحترق الكوخ وعجز العم عن الخروج منه فقضى فيه .

فردّ فعل الصبي في هذه الاقصوصة رد فعل بشري محض ، وسلوكه مبرر بهذا الظلم الذي كان يتعرض له . وهكذا عمد الى استعمال القوة التي علمها إياه عمه ، لينتقم من عمه بالذات . ولولا أن المؤلف دفع بخاتمة القصة الى ما وراء احتمال الوقوع ، اذ انها باحتراق الكوخ ولم يكن به حاجة الى ذلك ، ولولا انه كان يتدخل احياناً ببعض تعليقات تزعزع السياق (١) لحلت هذه الاقصوصة التي تصور عاقبة الظلم من اي مأخذ فني .

واقصوصة « المقبرة المدنسة » في هذه المجموعة تحكي حكاية امرأة قروية كانت تمارس البغاء في المدينة . وقتلها ذات يوم عشيق لها ، فحملت الى مسقط رأسها في القرية حيث دفنت . وتنشغل القرية كلها بالقصة ، وتحكي عن غنى المرأة ، وتروي ان ختاماً ثميناً ما يزال في إصبعها . وهنا يبرز مختار القرية غاضباً يريد ان يحرق الأكاليل والصليب الذي وضع على قبر الزانية التي لا تستحق هذا الشرف . ويتسلل في الليل الى المقبرة ، فينبش القبر ويقطع اصبع الزانية الذي كان فيه الخاتم ، ويعود جزعاً وهو يرتعد من الخوف ، مما خيل اليه من رؤية الأشباح . وفي اليوم التالي ، رأى احد الرعيان بالقرب من المقبرة اصبعاً مقطوعاً فيه خاتم ، فخاف لهذا المنظر ، وحسبه اصبع جنية ، كما كانت جدته تروي له ، فجاء بحفنة تراب ، وطمره بها ثم مضى في سبيله .

وفي هذه القصة تصوير صادق للمشاعر التي تنتاب أهل القرية تجاه امرأة ضلت طريقها . وبطل القصة هو طبعاً المختار الذي يظهر فيما بعد انه كانت له علاقة أثيمة بالمرأة ، وانه كان السبب الاول في دفعها الى البغاء . ولا ريب في أن تحليل عواطف المختار وهو في المقبرة يبلغ درجة طيبة من العمق والجمال ، وكذلك الصفحة التي تصور اشباح القبور ، بينما كان المختار يغادر المقبرة بعد أن قطع اصبع الميتة (٢) .

---

(١) ولد في بحرصاف عام ١٩١١

(١) يقول المؤلف في بدء الاقصوصة : « والبشر يحبون الثرثرة ، يحبون الدعاء ، لا يعطون الصدقة الا بثمنها عداً ونقداً .. ولكن الأعرج كأنما في قلبه ايمان بأن له على هؤلاء البشر ضريبة ، فلا تتحرك شفتاه بدعاء .. » (ص١٢) وفي الصفحتين ٢٤ و ٢٦ تعليقات أخرى ، تكشف الستار عن شخصية المؤلف الذي يتدخل في السياق .

(٢) « ورفع الشيخ سليمان رأسه ، فاذا هو يرتطم جبينه بباب المقبرة ارتطاماً مؤلماً ، ويقع على الارض . فنهض ومر بكفه على جبينه ، لا يشعر بالألم . وأضاء قنديله ، وجاء بقنينة الكاز فصبها على الاكاليل والصليب ، وأشعل عود كبريت ، وانسل الى جانب الحائط يمشي القرفصاء ، واتفق أن التوت عينه ، فرأى ألسنة النيران ، وخيل اليه من ورائها ان الأموات قاموا عليه . فخرج هيكل العظام من الباب ، ثم خرجت الجمجمة تنط نطاً وهي تضحك مكشرة ، ثم رأى الطربوش البالي يأتي في الفضاء ، وذؤابته ترقص ، ويحاول ان يحط على رأسه ؛ فرفع كفه يريد ان يصده ، فاذا اليد المتقلصة ،

ولكن في القصة خطأ تكنيكياً واضحاً : هو ان المؤلف كشف لنا في البداءة عن نية المختار في ان يسرق الخاتم . حين جعله يحدث نفسه قائلا : « انا مجنون .. كان من الواجب ألا اخبر أحداً بالخاتم الذي لا يزال في اصبعها .. ثلاثمئة ليرة عثمانية » فان هذه العبارة أفسدت على القارئ لذة المفاجأة . فراح يتابع القصة وهو على علم بان المختار سيذهب الى المقبرة ويفعل ما فعل . ولو أن المؤلف أهمل هذا التفصيل الدقيق لجاءت قصته اروع وأمتن .

ومن الأقاصيص التي تتميز في هذه المجموعة بالتحليل العميق والسرد الممتع اللذين يبرهان على قدرة المؤلف القصصية في التشويق والاجتذاب « الأرملة » التي تستعيد بطلتها ، بعد موت زوجها ، قصة حب سابق لها . فهي قد كانت تهوى شاباً لقوته ووقاحته ، بينما لم تكن تحب زوجها لضعفه واستسلامه لرغائبها . ومثل هـذا الموضوع مطروق في اقصوصة « الرسائل المحروقة » التي تصور بعذوبة خضوع الفتيات للقوة في الحب ، وتفضيلهن إياها على الضعف والتمهل والهدوء . وموضوع الحنين الى الاولاد الذي طرقه ميخائيل نعيمة في قصصه قد عرض له توفيق يوسف عواد في « أحد الشعانين » ، في اطار من استعراض اولاد القرية . ويعالج المؤلف موضوع الحب المراهق في « الشاعر » وهي قصة طالب يقع في حب امرأة ايطالية تنزل فندق ابيه . ثم تغادره الى بلادها مخلفة في قلب الفتى الاسى واللوعة (١) اما حكاية الهجرة والعودة وما بينهما من أشواق وتآس ولوعات ، فتحكيها قصة « جدي وحكايته » على أن في هذه المجموعة اقاصيص لا تخلو من تفاهة . وهي اشبه بالاخبار الصحفية او بالصور السريعة التي لا تعني شيئاً من مثل « الجرذون الشتوي » و « سقاء القهوة » و « عمر افندي »

توفيق عواد

وقد سجل المؤلف تقدماً كبيراً في مجموعته الثانية «قميص الصوف » التي صدرت بعد عام فقط . وهذا ما يظهره لنا التحليل . فقصة « قميص الصوف » تروي حكاية حب رؤوم عميق : ارملة ترفض الزواج حفاظاً منها على ذكرى زوجها ورغبة في تكريس نفسها لتربية ابنها . وقد توجه هذا الابن ، في مطلع شبابه الى المدينة فاختار له فيها فتاة مدنية وتزوجها على مضض من والدته . ولكن هذه كانت تحاذر مصارحته بحزنها حتى لا تشق عليه . وقد امتلأت سعادة يوم تلقت منه بعض الخيطان القطنية كهدية بمناسبة العام الجديد وبشرى بقرب زيارته لها . ولكن الابن اضطر الى ترك القرية ، بعد ليلة واحدة قضاها فيها ، نزولا عند رغبة زوجته . ووقفت الام الحزينة تودعه بعين دامعة . وتقدم له قميصاً من الصوف الذي كان قد ارسله اليها . « وحين اختفت السيارة . شعرت الأم على فراش السرير ، وعلى ثياب حدادها ، وفي أعماق نفسها رطوبة اليأس وظلماته وثقله ، كما لو انها تعود من دفن زوجها .. كما لو انها تصبح ارملة للمرة الثانية »

ولاشك في أن عمق حب هذه الام ، لا يمكن ان يتجلى في مثل هذا الملخص . فهو انما ينتفض بالحياة عبر هذه التفاصيل الصغيرة التي تجعل من تلك الام كائناً شديد الحساسية : في جميع حركاتها ، في تلك العنايات التي تحيط بها ابنها . عندما تناديه الى غرفتها لتعانقه بالخفية عن زوجته ، وعندما تدلف على رؤوس اصابعها الى الغرفة التي ينام فيها ، لتنحني فوقه وتقبل قدمه .. إن عواد يصور هنا « الأم » نموذجاً لجميع الامهات .

وليست قصة « الوسام » بأقل تأثيراً . انها تصور لوناً من الانتقام الغريب ولكنه الوحيد الممكن ، يقوم به عدد من العميان يستغلهم ويعذبهم كاهن منافق . في اثناء حفلة كان المنتظر ان يأخذ فيها هذا المدير وساماً تقديراً لخدماته ، ينفجر أعمى عهد اليه ان يخطب خطاباً ترحيبياً بالشتائم والسباب يوجهها ضد الظلم والاستغلال اللذين كان هو ورفاقه ضحية لهما.... وقد أصاب الكاهن يومذاك نصيباً طيباً من ضربات العميان وركلاتهم ، واضطر الى الاختفاء من الحفلة التي أقيمت على شرفه !

وتصور « توها » احد تلك التقاليد السخيفة التي لا تزال منتشرة في الشرق : كره الآباء للبنات الوليدات . وفي هذه القصة يدفع ذلك الكره أباً الى أن يقتل ابنته ، ولكنه لا يلبث طويلا حتى يندم ندماً شديداً . وتصور « كراخو » تبجح مهاجر لبناني يعود من اميركا ويبهر الناس بثروة مزعومة يملكها ، حتى يختفي . فيظهر انه كان مديناً .. وخير ما في هذه الاقصوصة تلك المفارقة بين

لمنفرجة الأصابع ، الخارجة من شق التابوت ، تهجم عليه وتمسك بعنقه تريد خنقه ، فجاءته الصيحة فزعاً ، ولكنها تلاشت في حلقه وصعدت هاثاً ، حينئذ قام الشيخ سليمان ، وأخذ يركض الى البيت ، وشيخ المقابر يلحق به ، ممسكاً بدل المنجل جرساً يقرعه ، والاموات تسيقظ وتنفض توابيتها عنها ، وتركض وراءه مئات من اهياكل العظمية الجوفاء ، مجيشة بطبولها وزمورها ، تريد ان تقبضه وترجع الاصبع المسروقة .. » (ص ٤٨ — ٤٩)

(١) في هذه الاقصوصة ايضاً يرتكب المؤلف خطأ تكنيكياً يفسد على القارئ لذة المفاجأة والمتابعة اذ يقول عن المرأة « كانت تلهو به وتشفق عليه اشفاقاً حلواً » وذلك في بدء القصة ، فيدرك القارئ بان العقدة تدور على هذه الحقيقة وتنتهي بخيبة الطالب وحرمانه .

عادات القرية الطاهرة الصافية والعادات القذرة التي اكتسبها المهاجر خارج بلاده . وترسم « الرفيق كامل » صورة اشتراكي غرته نظريات رفاقه الخاطئة ، فسقط في الكسل والانحطاط ؛ فبينما كان عاملا محداً وابا اسرة سعيدة ، أصبح عاملا خاملا شقياً . ثم انتهى الى اللصوصية .

ونذكر من قصص عواد الرائعة قصتي « بهية » و « ميثاق الموت » اللتين تحتفظان بقيمة تحليلية خاصة . اما الاولى فحكاية راقصة تستشعر سعادة عظيمة بان تجد رجلا يكن لها الحب النبيل الشريف . وحين تستسلم له ، تفعل ذلك وهي تبكي .. وتروي القصة الثانية باسلوب مؤثر قصة جندي يكره الحرب كرهاً شديداً بالرغم من انه شجاع جداً ، ولكنه يفكر دائماً بالموت . وقد ذهب بالفعل الى ساحة الحرب فأبلى فيها وعاد الى بيته سليماً معافى .. ولكنه مع ذلك سقط امام باب بيته جثة هامدة لأنه كان يفكر طوال وقته بأنه لا بد ميت قبل دخول الدار . وقد وفق المؤلف توفيقاً عظيماً في تصوير هذه « الفكرة الراسخة » او هذا « الوهم » Hallucination ، او « الإيحاء الذاتي » . ومن اليسير ان نلاحظ ان توفيق يوسف عواد يحاول في جميع هذه الاقاصيص ان يعبر عن قسم كبير من العواطف الانسانية ، ويعيشها في اجوائها النابضة الملونة المنوعة .

والحق ان فن الاقصوصة يبلغ لدى المؤلف درجة طيبة . وهو واع اشد الوعي لمقومات هذا الفن : انه يدرك ان تفصيلا واحداً غير محتمل الوقوع او لهجة غير صادقة جديران بهدم الاقصوصة كلها ، وهذا ما يدفعه الى أن يوفر لاقصوصته الطبعية والدقة في وقت واحد . فالتدفق والنظام يمتزجان فيها امتزاجاً تاماً فيسبغان عليها السحر كله ، ولا تقتصر اقصوصة المؤلف على عرض حكاية او حادث ، ولكنها اذ تروى القصة تمنحها كثيراً من الضوء والوضوح ، فليست الحادثة هي الهامة . وانما جمال القصة ناتج عن انها تكاد لا تكون مؤلفة من شيء ، او انها لبست مؤلفة الا من لحظة او حركة او اشعاع تعزله وتكشفه وتملأه برصيد غني من الاحساس وطاقة كبيرة من التأثير . والحق ان المؤلف « يعرف كيف يجذب قارئه منذ اللحظة الاولى ويحبس عليه انفاسه » (١)

على ان جميع مزايا توفيق يوسف عواد الروائية تجتمع في روايته الرائعة « الرغيف » (١٩٣٩) .

سامي عاصم وطني لبناني ينتمي الى تلك الطبقة المفكرة الواعية التي كانت تلتمس في العمل القومي تبريراً لحياتها ولوضعها المعنوي . والقصة تبدأ في قرية لبنانية صغيرة . ساقية المسك ، في اثناء الحرب العالمية الاولى . عشية الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ . وكانت البلاد العربية تتجمع لتتحرر من النير العثماني ؛ وكانت السلطات تلاحق سامي عاصم ، فالتجأ الى كوخ صغير في الجبل ، كانت توافيه اليه حبيبته زينة فتحمل له طعامه وتدلي اليه باخبار البلاد التي كانت تبلغها . وكان سامي قد علم ان عدداً من رفاقه قد أعدموا على ايدي الترك ؛ ولكنه كان ينتظر ، وهو في مخبأه . فرصة مناسبة تمكنه من العمل . غير أن هذا الجمود والتواني ما لبثا ان ثقلا على ضميره ، فزينا له ان وضعه لا يخلو من جبن ونذالة . ولعله شاء ان يعزي نفسه من ذلك حين عمد الى قتل جندي تركي فر من الجيش . وظل سامي بعدها ينتظر ، حتى وشى به بعضهم ، فألقى الترك القبض عليه وساقوه الى سجن عاليه بانتظار محاكمته . وقد بذلت زينة جهوداً كثيرة وقاست صعوبات جمة ليتاح لها رؤيته في سجنه ، حيث كان يسام العذاب الشديد لأنه كان يرفض الادلاء بأية معلومات عن مخابئ رفاقه . وأذيع يوماً ان سامي وقائد حرس السجن قد لاذا بالفرار ؛ وبعد بضعة ايام ، كان الناس يقفون امام جثتين مستورتين كان الاتراك يقولون انهما جثتا الرجلين الفارين . واذ رأتهما زينة ، انهارت من اليأس .. ولكننا نراها بعد حين قد استبدت بها عاطفة غريبة ، فلم ترفض دعوة الحاكم التركي العام الذي كان يرغب فيها منذ زمن ، فاذا هي تدلف الى قصره وتظل ساعات الى جانبه تتأمله وهو يشرب ويثمل : وحين أقبل عليها يود اغتصابها تناولت مسدسه وقتلته . وفي هذه الأثناء اعلنت الثورة العربية في الحجاز ضد الاتراك ، وأصابت المجاعة البلاد العربية التي جعلت تسعى وراء خبزها مثل سعيها وراء استقلالها . وما لبثت زينة ان انضمت الى فرقة من الثائرين الذين كانوا يقومون بأعمال التخريب في لبنان ، كألوف الشبان في سائر البلاد العربية ، وبلغها يوماً ان سامي لم يمت ، وانما التحق بعد فراره بالمركز الرئيسي لحركة الثورة التي أصبح الآن احد قوادها . وقد ظل يقاتل ويقود الحملات ضد الترك حتى سقط في ميدان المعركة ، ولكن النصر كان قد كتب للمجاهدين العرب ، ولم تستطع زينة بعد اذ بلغها النبأ أن تمسك دمعة حين رأت الثوار العرب يدخلون منتصرين الى قريتها الصغيرة : إن سامي لم يكن الا احد هؤلاء الابطال الذين اضطلعوا بمهمتهم وقاموا بنصيبهم في صراع العرب من اجل استقلالهم ورغيف خبزهم .

إن رواية « الرغيف » من الروعة والحيوية وشدة التأثير بحيث تعصى على التلخيص . ونحن لا نخشى المبالغة ، ولا

(١) بروكلمان « تاريخ الآداب العربية » ملحق ٣ ص ٣٩٠ .

« سمعت في الريف ، وما اكثر خفايا الريف ...
سمعت في المدن ، وما اقسى ما يجري في المدن ...
سمعت في المعابد .. وسمعت في الكنائس ...
جلست الى عذارى والى مطلقات . والى خاطئات
والى سعيدات ، حتى استطعت ان اخرج لقرائي
الاعزاء كتابي الجديد :

الخيانة الزوجية

« اسماعيل المبروك »

١٨٠ صفحة | توزيع المكتب التجاري | ١٠٠ ق.ل

نخاف ان نتهم بالغلو واطلاق الكلام حين نقرر ان هذه الرواية بموضوعها هي من أروع الروايات العربية الحديثة وابعدها مغزى . ذلك ان موضوع « الرغيف » هو أجمل موضوع في تلك الحقبة من التاريخ العربي التي تسجل يقظة الشعور الوطني في مختلف البلدان العربية . انه بما يستشرفه من امكانيات وما يفتحه من آفاق موضوع على غاية الخطورة . ذلك ان « الرغيف » لا يمجد فقط اعظم حدث في التاريخ العربي المعاصر ، وانما يمجد كذلك سلسلة من الاحداث لا تقل أهمية ولا تزال جارية حتى ايامنا هذه ، وستمتد الى المستقبل القريب او البعيد . إن « الثورة العربية » لم تنته بعد ، وان الاستعمار لم يزل نهائياً . وان الاستقلال لم يتم . وان الصراع ما زال قائماً . إن العرب لا يزالون في جميع بلدانهم يسعون وراء الرغيف . وإن رواية الرغيف تظل دائماً اروع نداء واجمل دعوة الى الاستقلال والحرية .

وإذن، فان موضوع هذه الرواية يتناول الانبعاث العربي ، وهو يفوق دون ريب اجمل روايتين عربيتين كتبتا في الموضوع نفسه : نقصد رواية توفيق الحكيم « عودة الروح » وهو يتفوق عليها بأنه يصور حركة اوسع وأشمل وصراعاً دخلت فيه جميع الشعوب العربية لا شعب واحد فقط . ومن هنا دعوته الى ما ينشده العرب جميعاً ، الوحدة الكاملة ، ثم انه يتفوق على رواية شكيب الجابري « قوس قزح » بأنه يستمد مادته من الاحداث الواقعية الحقيقية .

ولئن كان سامي عاصم مجاهداً فكرياً ، فانه كذلك رجل شديد الحساسية. غير ان حساسيته متوقفة على عاطفته القومية. إن حبه لزينه متصل اشد الاتصال بفكرة الثورة ، فهو يغنيها ويغتني بها ، ويرتفع بذلك الى البطولة والتضحية. لنقرأ مثلا هذا المقطع الرائع الذي يصف فيه المؤلف نفسية سامي حين أقبل احد مواطنيه يحدثه عن زينة ، بعد اعلان الثورة :

« فهال سامي الى محدثه ، وأحس شعاعاً يضيء في قلبه لاسم من يحب . وطفا هذا الشعاع ابتسامة على شفتيه ، فعاد ينظر الى السماء ، وأخذت صفحات حياته تكر أمامه .. زاوية صغيرة هنا بين ضلوعه . قد تستوعب الصحراء والدنيا وأمجادها ، وتبقى مع ذلك مستوحشة ، وشيء صغير قد يحطم كل ظلم على وجه الأرض ، ويغيب الظالمين في أعماقها ، ويظل مع ذلك متململا غير راض.. ساقية المسك ، ووجه زينة .. « الثورة ! الثورة ! لو تعلمين يا زينة ما أجملها ! ما اعظمها ! ما اروعها ! » لو تعلم ما اتفهها الآن ! ما اتفهها ، كالماء بلا خبز ، كالخبز بلا ماء ! »

مجموعات « الآداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الأربع الاولى من « الآداب » تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٤٥ ل.ل	٥٠ ل.ل
〃 〃 الثانية	٢٥ 〃 〃	٣٠ 〃 〃
〃 〃 الثالثة	٢٥ 〃 〃	٣٠ 〃 〃
〃 〃 الرابعة	٢٥ 〃 〃	٣٠ 〃 〃

وموقف سامي اذ يلتقي ، وهو في السجن ، بعمر حمد احد المجاهدين الابطال ، اليس موقفاً مؤثراً رائعاً ؟ « حين اخبره عمر انه سيشنق غداً ، سكت سامي . وبعد لحظة رفع اليه عينين قلقتين وتمتم : « قبلي انا ، يا عمر ؟ الم نكن دائماً معاً ؟ » ولا يقل عن ذلك اثارة وتأثيراً الفصل الذي يروي اخراج الأبطال من السجن لسوقهم الى المشنقة ، والموقف الذي يجهز فيه سامي على زميله شفيق بعد إصابته بنار الأعداء وفق العهد الذي تعاهدا عليه .

إن رواية « الرغيف » كلها ملأى بمثل هذه المواقف والدقائق المؤثرة . والواقع ان عواد يملك هذه المقدرة الفذّة على ان يجعلنا ننسجم مع مختلف ذبذبات العواطف لدى أبطاله ، وهو يرسم بدقة بالغة ، ولكنها متحفظة خفية ، خط حرارتهم ويهز في روايته « جواً » حقيقياً لا تصنع فيه ، ليس هو الحادثة ، وليس هو تحليل نفسيات الأبطال ، بقدر ما هو ذلك الأثير الخفيف الذي يموج بين هؤلاء الابطال ، وبقدر ما هو نبض وعي صامت ملون بشتى الانطباعات الكمينة .

ومن جهة أخرى ، يثير المؤلف ، ضمن إطار متماسك ، سلسلة من القضايا القومية والاجتماعية التي لا تزال قائمة ، ومن هنا تصدر أهميتها . فهو يعالج قضية القومية والدين المعالجة التي يكاد يتبناها اليوم الجيل العربي الواعي الذي هو مناط الأمل في نهضتنا الجديدة ،ويحمّل نظريته بطل الرواية

سامي (١) تلك النظرية التي ينبغي ان يعيها اللبنانيون على حقيقتها ليقضوا على آفة الطائفية التي تشل كل تقدم ينشدونه .

وتعالج الرواية الى جانب ذلك عدداً من القضايا الاجتماعية في هذا الاطار الفني ، منها قضية الاقطاعية الجشعة التي تعبر عنها زينة حين تقول لأخيها الفتى : « ابراهيم بك فاخر عدو لا يقل شره عن الاتراك ، بل ان شره أعظم . رئيس العصابة البيضاء كان يقول لي : البك وأمثاله هم العدو الداخلي ، والاتراك العدو الخارجي . الاتراك يسلبون الناس حريتهم ، وابراهيم بك فاخر وامثاله من الأغنياء الجشعين يسلبونهم خبزهم ، الخبز والحرية ، هل يستطيع الانسان ان يعيش بدونهما ؟ » (ص ٢٤٢) .

ويبقى اخيراً فن المؤلف في « الرغيف » . وتأليف الرواية يدل على ان عواد صاحب نظرية واعية في الفن الروائي . فهناك بناء متماسك يسوق القارئ عبر الأحداث المختلفة بثقة واطمئنان . هنالك اولا الهيكل الذي عولجت فيه القصة بقسط كبير من التركيز : وحدة فنية تصور تطور الأحداث وفق تدرج عميق المغزى . فالرواية تبدأ بوصف « التربة » الخصبة التي ينبغي ان تقذف فيها بعد حين « بذور » المقاومة ، ولا يلبث « المطر » طويلاً حتى يهطل عليها « غيثاً » ، فينبت « السنابل » المليئة بالوعود ، ويكون « الحصاد » نتيجة هذه الثورة ، وما كان أخصبه حصاداً !

وتوزيع الرواية بين مختلف اوساط الأبطال انفسهم يجري وفق تأليف متقطع ، حسب دفعات متميزة تتقدم كل شخصية خلالها خطوة ، ثم يتركها المؤلف الى سواها ، ولكن يحدث ان يطغى قسم ذو أهمية خاصة على قسم آخر ، فيتابع اندفاعه بقوة . غير ان تكنيك التدرج يظل شديد التماسك ، وتبدو براعة المؤلف خاصة في انه يجعل ابطاله الذين وزعهم في اول الرواية يسيرون سيراً لا تصنع فيه بحيث يجتمعون في آخر الرواية وقد استكملوا اسباب تطورهم الطبيعي . ثم إن هذه الطريقة الروائية ترتفع باسلوب المؤلف الايحائي الذي يخلق الجو المناسب بلمسات بارعة ولغة بعيدة عن الزوائد والنوافل .

غير أن لنا مأخذين اثنين على الرواية : اولهما ان في القسم الاول تفاصيل كثيرة لا تستجيب كلها لمبدأ الضرورة الروائية وهي لهذا لا تخلو من إملال . وثانيهما ان المؤلف يتدخل ، في مواقف قليلة جداً ، لشرح بعض الأحداث ، فيكون هذا التمهيد والتفسير مفسدة لفنية القصة . إذ يتخذ لهجة التقرير ويحرم القارئ لذة المتابعة والمفاجأة . واكتفي بمثل واحد . فحين يجتمع بطل القصة سامي بصديقه كامل افندي ، فيتبادلان بعض الاشارات ثم يتعانقان ، يتدخل المؤلف فيقول : « تلك الاشارات والحروف هي علامة التعارف بين اعضاء الجمعية القحطانية ، احدى الجمعيات السرية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت في معظم الاقطار الناطقة بالضاد وبين ضباط الجيش وجنوده العرب خاصة ، ويدبرون في الخفاء معدات الثورة ويهيئون يوم الانتفاض على الدولة . » فان المؤلف هنا يكشف بتدخله عن كل ما سيلي من الرواية .

على ان هذين المأخذين لا ينقصان شيئاً من روعة « الرغيف » . فان هذه الرواية تصور حقبة هامة جداً من التاريخ العربي المعاصر لم يفكر احد سواه في تصويرها . وهو اذ يعكس اعظم الاماني القومية يسهم في خلق نموذج للبطل المفكر المكافح الذي يستطيع قبل اي انسان آخر ان يعمل على تحقيق هذه الأماني . ثم انها رواية عظيمة بما توفره من توازن عادل بين التحليل النفسي والحس الدراماتيكي .

إن « الرغيف » تتيح لتوفيق يوسف عواد ان يحتل مركزاً ممتازاً في سلم الروائيين العرب المحدثين الذين يمثلون الفن القصصي خير تمثيل ، كتوفيق الحكيم وميخائيل نعيمة وذو النون ايوب ونجيب محفوظ وشكيب الجابري .

سهيل ادريس

(١) « انا افكر في نفسي ، وافكر في امثالي من الذين علقهم الأتراك على اعواد مشانقهم في بيروت ودمشق ، وفي الذين نفوهم الى أقاصي الأناضول أو زجوهم في أعماق السجون ، وفي الذين يحاربون معنا هنا في جيش الثورة ، او انضموا الى الحلفاء في مهاجرهم . منهم من قضى نحبه ، ومنهم من لا يزال حياً .. هؤلاء جميعاً ، يا كامل ، افكر فيهم عندما اسمع كلامك . كلا .. ليس بين العرب والاتراك جهاد ديني . الاتراك في اكثريتهم مسلمون ، والعرب في اكثريتهم مسلمون . ليس هنالك مسلمون يحاربون مسلمين او غير مسلمين ، بل عرب يقاتلون اتراكاً لاسترداد حريتهم ، واتراك يقاتلون عرباً لاستبقاء سلطانهم عليهم . اليوم قد ولدت القومية العربية الصحيحة . إن امها هي هذه الثورة التي أمشي فيها انا المسيحي العربي الى جنبكم انتم المسلمين العرب لنحارب عدواً مشتركاً لبلادنا هو التركي ، سواء اتبع محمداً او المسيح او الشيطان . وان اباها هو ذلك الاستشهاد الذي لقيه شبان العرب وابطالهم السابقون . أخذهم الاتراك على انهم عرب ، فلم يسألوا المسلم عن قرآنه ولا المسيحي عن انجيله . اكبر الظن انك يا كامل تستوحي تاريخنا القديم . وهذا التاريخ قائم معظمه على الاسلام ، وليس يعيبه انه كان كذلك ، فلم يكن يستطيع ان يكون الا كذلك . وقد طالما كانت الاديان عند مختلف الامم الحافز الاول للم شعثها ، وتوحيد كلمتها وتكوين شخصيتها . ولكنه يعيبنا نحن في هذا العصر ان نبني دولتنا الجديدة على اسس الدين . إن قوميتنا العربية التي ولدت اليوم ، لا يهمها من الخلافة الا بمقدار ما يهم الايطاليين من البابوية . الذين يقاتلون الاتراك اليوم يقاتلون معهم الألمان ، وهم لا ينازعونهم على خلافة ، وقد يقاتلون الانكليز غداً والفرنسيين اذا طمعوا ببلادهم وحاولوا اذلالهم .. » (ص ٢٨٢ – ٢٨٣) وقد تحققت اليوم هذه النبوءة !